

جدلية الأنا والآخر (رواية المتشائل أنموذجاً)

د. سعيد محمد الفيومي

برنامج التربية - قسم اللغة العربية

جامعة القدس المفتوحة - منطقة غزة التعليمية

ملخص: يهدف هذا البحث إلى التعرف إلى رؤية الكاتب إميل حبيبي في التعامل مع الواقع الجديد الذي أحدثه هذا الاحتلال، فيعد عام 1948م -بعد النكبة الفلسطينية- وقعت فلسطين تحت احتلال من نوع آخر، يعبر هذا الكاتب عن محاولة التعايش بين الأنا الفلسطينية والآخر المحتل لهذه الأرض، والذي حاول منذ اللحظة الأولى طمس هوية الأنا الفلسطينية، ومحاولة إلغائها. فعاشت (الأنا) الفلسطينية حالة جدلية قاسية مع هذا الواقع، فالكاتب يعمل على بلورة رؤيته من خلال هذه الرواية في التعايش مع هذا الواقع الجديد ولكن على طريقته هو وليس على طريقة هذا المحتل.

Dialect of of ego and the other (Novel of of Emil Habibi)

Abstract: This research aims at identifying Emil Habibi's vision, how to deal this new reality which is resulted from the occupation. After 1948 (The Palestinian Nakba) Palestine has been occupied by a different kind of occupation. The author expresses the life between the Palestinian ego and the Other (occupier) which has been trying to eliminate the identity of the Palestinian ego.

This ego was living in a conflict and complex situation with this reality. The author expresses his vision through this novel, how to live with such a new reality but in his own way not the occupier way.

التقديم:

نعلم جميعاً أن موضوع دراسة الآخر في الأدب، من القضايا التي شغلت النقاد في الدراسات الحديثة، ذلك أن مثل هذه الدراسات أصبحت أكثر التصاقاً بما يعرف بحوار الحضارات، والتي يمكن أن نضع من خلالها قناة مهمة لتحقيق التواصل الثقافي مع هذا الآخر، ويعد ذلك محاولة لتأسيس حوار إنساني من خلاله نستدل على توجهات هذا الآخر، وكيفية التعامل معه. إلا أن لكل أدب تصويره الخاص بهذا الآخر يصدر في ذلك عن رؤية الأديب الخاصة من خلال ظروف حضارية خاصة بهذا المجتمع وعلاقته بهذا الآخر وينسجم - في الوقت نفسه - مع الشرط التاريخي لهذا المجتمع، لأننا لا نستطيع دراسة المادة الأدبية بعيداً عن سياقها التاريخي. انطلاقاً مما سبق يحاول هذا البحث المتواضع أن يرصد جدلية الأنا بالآخر في رواية (الوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل) لإميل حبيبي.

د. سعيد الفيومي

لقد تقصد الاهتمام بخطاب الآخر في الرواية الفلسطينية بعد الواقع المر والفريد من نوعه، والذي ظهر بعد عام 1948 عام النكبة، هذا الخطاب سيكون له خصوصية تختلف تماماً عن خطاب الآخر في الآداب الأخرى، ناتجة عن خصوصية الموقف الفلسطيني المرتبط في أساسه بحالة التناقص التام بينه وبين هذا العدو المغتصب.

نحاول في هذا البحث أن نستقري رواية لكاتب عاش ومات في أرض فلسطين، ولم يغادرها، ويجب أن ننوه هنا إلى أن الآخر الذي نعنيه هو (اليهودي)، ولا شك في أن الآخر اليهودي والعلاقة معه، هي التي تأخذ المساحة الأكبر في هذا الجانب.

لقد لقيت الرواية - موضوع الدراسة - اهتماماً كبيراً من قبل الباحثين، ليس فقط لأنها من الأعمال الروائية الأولى التي تصلنا من الأرض المحتلة عام 1948م بل لأنها تثير قضايا أدبية ونقدية وسياسية جديدة، وتعد هذه الرواية علامة مميزة في مسار الرواية الفلسطينية والعربية وتتطوي على أمرين، الأول: أنها تضيف جديداً على صعيد الشكل والبناء، فالكاتب يستخدم آليات جديدة يوظفها بطريقة تتناسب مع ثقافة الآخر لمخاطبته، والثاني: أنها تعالج بهذه الأدوات قضيتنا المعاصرة التي تتعلق بالوجود الفلسطيني على أرض فلسطين، وقدرة هذا الوجود في التعامل مع الواقع الجديد.

إن رواية (المتشائل) هي نوع أدبي جديد، جديد في الشكل والمضمون - كما ذكرنا - تدخل ضمن دائرة رواية الصراع العربي الصهيوني، كما سماها د. عبد القادر شرشار في كتابه الخطاب الأدبي في رواية الصراع العربي الصهيوني والصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية.

اعتمد هذا البحث في أول أمره، بعد أن كان مجرد فكرة في ذهني، اعتمد على المساءلة، التي تطرح مجموعة من الإشكالات من منظور ثقافي وسياسي، وهي تتمحور حول البعد التاريخي للقضية الفلسطينية، ورسوخ هذا الوعي تماماً داخل الوعي الفلسطيني والعربي والإسلامي، في حين لا نجد هذا البعد لدى الآخر، بل نجده يتناقض تماماً مع ما هو داخل الوعي اليهودي، فالحق الفلسطيني له ما يبرره عند الفلسطيني، فالروائي في رواياته يعالج - وفي جزء كبير منها - قضية الفلسطيني الضحية، ضحية افتراءات هذا التاريخ المزيف، إلا أن مثل هذا الوعي هو لدى الفلسطيني فقط، وهو غير موجود عند الآخر، فمثل هذه الثقافة - ثقافة الضحية - لم تعد تنفع أو تتناسب مع ثقافة الآلة الغربية، فتظل غريبة عن نبض الحياة لدى هذا الآخر، إضافة إلى أننا لا نريد لهذا الأدب أن يقف عند حدود التوثيق للواقع السياسي الفلسطيني المعيشي،

جدلية الأنا والآخر (رواية المتشائل أنموذجاً)

إن ما نريده أن يتعدى ذلك إلى إعادة تشكيل الوعي وتنميته، وأن ينطلق إلى أفق أوسع، وبما يتناسب مع ثقافة هذا الآخر.

هذه الثقافة - ثقافة الآخر - القائمة على العدوان والقتل وسلب الأرض، وهذا ما أكده العدوان الأخير على غزة، والحروب السابقة بدءاً بعام 1948م عام النكبة وصولاً إلى العدوان الأخير. فالقتل والعدوان وسلب الأرض، تمثل جزءاً كبيراً من التكوين العقلي لهذا العدو، لهذا نقول إن علاقة التناقض والجدل مع هذا العدو، لم تكن في لحظة من اللحظات قائمة على بعد أيديولوجي أو إنساني على الإطلاق.

وفي تحليلنا للنص الروائي نتبع المنهج (السيوسيلوجي) لنضع النص ضمن شرطه التاريخي الذي أنتجه، إضافة إلى الكشف عن معناه ودلالته.

راكزات النص

البعد الموقفي للرواية وعلاقتها بجدلية الأنا والآخر:

نشرت الطبعة الأولى من هذه الرواية صيف عام 1974م، وهي من منشورات (عربسك) مطبعة الاتحاد، حيفا، وصدر منها سبع طبعات على التوالي. ترجمت هذه الرواية عن دار (مغراس) القدس عام 1984م إلى الإنجليزية والفرنسية، والروسية، والبلغارية، والعبرية. تتكون هذه الرواية من (140) صفحة، وهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام يسمى الكاتب كل قسم (كتاب). الكتاب الأول جاء تحت عنوان (يعاد) ويضم عشرين مشهداً، لكل مشهد رقم وعنوان. الكتاب الثاني، جاء تحت عنوان (باقية) ويضم ثلاثة عشر مشهداً. وجاء الأخير تحت عنوان (يعاد الثانية) ويضم عشرة مشاهد،

هكذا بدت الرواية موزعة على كتب ثلاث. لذلك كان إبراز البعد الموقفي لهذه الرواية صعباً، لأن بناءها لا يعتمد على حدث مركزي تنفرع عنه أحداث فرعية، كما أنها لا تعتمد البناء التقليدي للرواية فالمشاهد داخل النص لا تأتي مرتبة أو متتابعة، وإنما يأتي ذكرها على شكل ومضات مبعثرة ولقطات متناثرة، وتتغذى الرواية بالرؤى والخيال والصور، وتعتزض أحداثها التحولات والتشابكات (1-93). إضافة إلى ذلك كله فإن الامتداد الزماني والمكاني داخل النص يجعل من الصعب تلخيص الرواية للخروج ببعدها الموقفي وقضيتها التي تعالجها، لكننا نحاول أن نرصد ذلك وبايجاز.

إن هم الرواية الأساسي وفكرتها يكمن في إبراز صورة من نضال الشعب العربي الفلسطيني في وجه الاضطهاد العنصري والقهر الاجتماعي وفضح أساليب المحتل. ذلك النضال الذي يلتحم بقلب التاريخ حيث الغزو الصليبي وحصار عكا، وغزو المغول، إلى أن نصل إلى الانتداب

د. سعيد الفيومي

البريطاني على فلسطين، مروراً بالنكبة الكبرى عام (1948م) وإقامة دولة (إسرائيل) على أرض فلسطين ثم بالعدوان الثلاثي على مصر، وهزيمة عام 1967م، إنتهاء بالمجازر العديدة التي تعرض لها الشعب الفلسطيني. يجسد الكاتب ذلك كله من خلال شخصية (سعيد) هذه الشخصية التي تبدو غير عادية، فهي شخصية متخاذلة وسلبية، ومن خلال الأحداث التاريخية التي يستعيد الكاتب جزءاً كبيراً منها لتتحول على يديه إلى زمان اجتماعي وسياسي، يجسد الكاتب من خلاله رؤية الرواية وبعدها الموقفي. يصنع الكاتب ذلك كله بنسج خطابي روائي يتشكل من خلال السرد الذي يتقاطع فيه الحكى والتذكر والتداعي وتيار الوعي، إضافة إلى أساليب القصص القديم ممثلاً في المقامة وأساليب القصص التقليدية و فن السيرة، مما يعني وفرة الأساليب وتنوعها، ويتبع الكاتب الحبكة المفككة، ولعل ذلك يرجع إلى المساحة الزمانية الكبيرة التي تتحرك خلالها الأحداث، فالحدث داخل النص لا يسير بخط مستقيم، بل ينمو بشكل متعرج ومتفرع (وبقيت عشرين عاماً أنتظر عودتها، فقد أخذوها مع غيرها من المتسللين إلى حيفا من الناصرة ومن المجيدل ومن يافة ومن معلول ومن شفا عمر ومن عبلين ومن طمرة، وكل عامل تسلل إلى حيفا ليطلع عياله، وألقوا بها في سهل جنين بين ألغام الانجليز والعرب واليهود (2-35).

يعمل النص على ذكر أسماء القرى والمدن التي أخرج منها الفلسطيني ليعطي المكان الدلالة التي يريدها الكاتب، فكما هو واضح من الفقرة السابقة أن إميل حبيبي يكتب قضية الوطن على ضوء الوطن الحاضر تارة وعلى ضوء الواقع المعيشي تارة ثانية، وعلى ضوء الإرادة القلقة تارة ثالثة، ويلجأ إلى تقانة التذكر ليؤكد لنا أن التاريخ داخل الوعي الفلسطيني هو تاريخ متكامل، وليس تاريخاً مجزئاً مما يعني قدرة هذا الإنسان على الاستمرار والتفاعل ووحدته في مواجهة هذا الآخر، وبما يمكنه من إنقاذ ذاته (استقبلتنا عكا، حين دخلناها، وقد التفت بعباءة الليل العباسية فتذكرت صاحيتي (يعاد) التي لم تبتسم في القطار لسوء، فتسارع وجيب الفؤاد، إن عكا هي مدرستي الثانوية ويعاد هي حبي الأول).

فعكا التي صمدت للصليبيين أطول مما صمد غيرها من الحواضر، وردت نابليون ولم يدخلها التتار، حافظت على هيبتها بعد أن هرمت وشاخت وأصبح سورها محششة، ومنارها مثل قنديل جحا...، (3-69،70)

هكذا تمحور البعد الموقفي لهذه الرواية حول صورة الشعب الفلسطيني داخل الأرض المحتلة في مواجهة الأعداء إضافة إلى محاولة الكاتب جمع تاريخ فلسطين داخل حزمة واحدة ليؤكد على تواصل الزمن التاريخي لهذه الأرض من جهة، ويؤكد على ذاته المتأصلة داخل هذا الوطن من جهة أخرى.

جدلية الأنا والآخر (رواية المتشائل أنموذجاً)

ب - العنوان:

قبل الولوج إلى النص الروائي، نجد أنفسنا أمام عنوان لا بد أن نقف عنده للتأمل ومحاولة تأويله واستقرائه، فالعنوان يعتبر مفتاحاً إجرائياً في التعامل مع النص الأدبي في بعده التركيبي والدلالي والموجه الرئيس للنص "وهو مفتاح أساسي يتسلح به المحلل للولوج إلى أغوار النص العميقة قصد استنطاقها وتأويلها" (4-11) وهذا ما عناه إدوارد سعيد عندما تحدث عن بداية أي عمل باعتباره "الخطوة الأولى في إنتاج المعنى المقصود" (5-13)، وبالنظر في عنوان الرواية "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل". ما نلاحظه من أول وهلة، هو طوله، فهو يتكون من ثماني كلمات مما يثير الدهشة، وهو جملة اسمية، والاسمية مسيطرة على كلمات العنوان، فقد أراد الكاتب أن يكون العنوان على صورته التركيبية هذه "قوة الدلالة الاسمية من ناحية، ولأنها أشد تمكناً وأخف على الذوق السليم من الدلالة الفعلية من ناحية أخرى (6-28). أما من الناحية الدلالية، فالعنوان يستند إلى مفارقة واضحة تكمن في ثنائية التناول والتشاؤم، ويمكن تقسيمه على صورته السابقة إلى ثلاثة مقاطع هي: الوقائع الغريبة - في اختفاء سعيد أبي النحس - (المتشائل) مع الإشارة إلى أن (في اختفاء) تمثل وقفة صوتية تمهيدية بين المقطع الأول والثاني، أما المقطع الثالث فدخل (أل التعريف) على مصطلح (المتشائل) قد وفر لهذا المقطع الوقفة المطلوبة، إضافة إلى أن (أل التعريف) وضعت المصطلح في حدود دلالية لا يمكن تجاوزها، فمن خلال هذا التعريف يتصل المصطلح مباشرة بشخصية (سعيد) أبي النحس فالكاتب يختار كلمات عنوانه دون النظر إلى عملية التوازن اللفظي ليعطي هذا العنوان قيمة دلالية على مستوى المضمون، فينحرف وبصورة واضحة في عنوانه وبصورته التركيبية إلى المستوى الدلالي أكثر من المستوى الموسيقي الصوتي، وتبرز هذه القيمة الدلالية من خلال التقابلات المتعددة داخل البنية التركيبية للعنوان، فالمقطع الأول من العنوان يشير إلى وقائع غريبة حدثت وأن هذه الأحداث الغريبة تدور حول اختفاء (سعيد أبي النحس)، فالتقابل في المعنى واضح بين السعادة والنحس، فهذه الوقائع الغريبة سرعان ما نحس بها من خلال كنية سعيد (النحس)، ولفظة النحس لا تحيل القارئ إلى دلالة المفارقة فحسب، بل هي مفارقة ساخرة، فاختيار النحس بدل مفردة (تعبس) أو سيء الحظ، تحمل شحنات هزلية من خلال الوجدان والخيال الشعبي، وبذلك يطالعنا العنوان في مستهله بأول خط من خطوط صورة (الأنا) حين يصف سعيد الشخصية المحورية في الرواية بالنحس. ولفظة (المتشائل) والتي تمثل المقطع الثالث، كلمة منحوتة من المتشائم والمتفائل والكاتب يشير في النص أن صفة المتشائل هي كنية لحقت بعائلة سعيد، فهي ليست وصفاً خاصاً به، مما يعمق الدلالة مرة أخرى، فسعيد يقف بين حدين، هما: التناول

د. سعيد الفيومي

والتشاؤم، السعادة والنحاسة، مما ينبئ بعالم الرواية الحافل بالاضطرابات والانفعالات المتنوعة والمختلفة والمندمجة بعضها ببعض لتعكس على علاقة الأنا بالآخر، فالعنوان تتداوى داخله عواطف الأمل واليأس، واللقاء والإبعاد، والسخرية المرة.

مما سبق نرى أن العنوان على صورته التركيبية والدلالية يشكل البنية الرئيسة لفهم الخطوط العامة داخل النص الروائي الذي نحن بصدد، فالكتاب جعل من هذا العنوان وسيلته لتعيين طبيعة النص الروائي، وأعلن من خلاله مراميهِ الأيديولوجية والفنية ونوايا النص، خاصة ما ارتبط منها بشخصية (سعيد) ارتباطاً وصفيًا، فهو يصف شخصية سعيد منذ البداية ويجسد الإحساس بهذه الشخصية مباشرة قبل الولوج إلى النص ويبرر أن سعيد هو مركز التنبؤ الحكائي داخل النص والذي تتمحور حوله العلاقة وتتجسد من خلاله جدلية الأنا بالآخر.

ج- الشخصيات:

تمثلُ رواية المتشائل بالشخصيات المتنوعة والعديدة، التاريخية منها والمعاصرة الواقعية والمتخيلة، بعض هذه الشخصيات تذكر فنسمع عنها ولا نراها وبعضها يتحرك أمامنا فنراها ونسمعها. سنقف في هذه الفقرة عند شخصية (سعيد أبي النحس) وشخصية (الرجل الكبير ذو القامة القصيرة) لأنها من الشخصيات المحورية داخل النص الروائي وتتجسد خلالهما جدلية الأنا والآخر. فشخصية سعيد تتسلم السرد في مواضع عديدة داخل النص، لذلك يعمل النص منذ البداية على أن يتمتع سعيد بمواصفات صراعية يتميز بها، ليعطيه القدرة على الارتقاء إلى ذلك الحشد من التكتيف الصراعي والاختلافي الذي يتميز به (فسعيد المتشائل شخصية تتراوح بين الثبوت والنمو، فهي ثابتة بالنظر إلى أفكارها وطبيعتها تكوينها وأسلوب انتمائها ومواقفها من الأحداث، لكنها نامية من حيث تعرفها على ما يحيط بها) (7-104)، وهو بريء مذنب في آن، فهو لم يرتكب شيئاً يستحق عليه التعذيب، لكنه مذنب، لأنه جزء من شعب حكم عليه بالتشرد والضياع، يدخل السجن ويعذب دون أن يرتكب ذنباً وهو جبان ومتخاذل وسلبى، وبالمقابل يخبئ داخل هذا الجين وذاك التخازل ذكاءً عجبياً، وسخرية واستهزاء أعجب، يبدو سعيد أمام هذه الصورة شخصية مأزومة محاصرة بعوامل إحباط داخلية على مستوى المشاعر والوجدانات، وخارجية على مستوى الواقع الجديد، عنوانه في ذلك مجئ الآخر إلى الوطن، وبناء دولة خاصة به على أرض سعيد، مع هذا الواقع الجديد يجد سعيد نفسه مدفوعاً إلى أن يحدد موقفه من هذه الحالة من خلال الاجتهاد في الخلاص من هذه الأزمة بالتواصل والتعايش مع هذا الآخر لكن على طريقته هو، وليس على طريقة هذا الآخر، وفي الوقت نفسه يعيش حالة من التصالح مع الذات. (فأتاني صوت المذيع وهو يدعو العرب المهزومين إلى رفع أعلام بيضاء فوق أسطح منازلهم فيوفرها

جدلية الأنا والآخر (رواية المتشائل أنموذجاً)

العسكر المارقون مروق السهام، فينامون في بيوتهم آمنين، فاختلط عليّ أمر هذا الأمر أيهم يأمره المذيع، مهزوم هذه الحرب، أم مهزوم رودس، قلت أنهزم أسلم عاقبة! وأقنعت نفسي بأنه إذا ظهر خطأي حملوه على حسن نيتي وبياض طويتي، فصنعت من بياض فراشي علماً أبيضاً، علقتة على عصا المكنسة، ونصبتها على سطح بيتي، في شارع الجبل في حيفا، ولواء الإفراط في الولاء للدولة.

ويا دلالة على من تدللين! فما إن أشرف على هذا الشرف حتى شرفني معلمي يعقوب بزيارة عاطل، أي خلوا من السلام عليكم. فلم أرد التحية. وكان يطرح: أنزله يا بغل! فأنزلت رأسي حتى لامست قدميه، وأنا أقول: هل عينوك ملكاً على الضفة الغربية يا صاحب الجلالة؟

فأخذ يعقوب بتلابيبي - أي بيجامتي - وراح يدفعني على الدرج نحو السطح، وهو يشنشن: الشرف! حتى بلغنا موضع المكنسة فانترعها، فحسبت أنه يريد أن يضربني بها، فتعاركنا راقصين، رقصة العصا حتى تهاوى على حافة السطح وهو يبكي ويقول: رحمت يا صديق العمر ورحمت معك! فقلت: إنني رفعت الشرف على عصا المكنسة مليباً أمر المذيع من محطة الإذاعة الإسرائيلية، قال: حمار، حمار! قلت ما شأنني إذا كان حماراً؟ ولم لا تستخدمون مذيعين سوى الحمير؟ فأفهمني أن المعني بالحمار هو أنا. أما مذيعو القسم العربي في محطة الإذاعة الإسرائيلية فكلهم عرب. ولذلك أسأؤوا صياغة النداء فالتبس الأمر عليك يا أحمق(8-161،162).

"يبدو واضحاً في هذه الفقرة التطابق الفني والجمالي بين (المقول والمفعول)، والمقول والمفعول محكومان بقانون أساسه (الطباق والتورية) وقانون تأويلي معه من جهة أخرى، فهو في غفلته وسداجته، إنما يدعو إلى الضحك منه، والضحك معه على الآخر (الإسرائيلي)، ولعل المفارقة النموذجية الباعثة على هذا الضحك المزدوج من (الشخصية ومعناها معاً) تكمن في الحكاية التي تعنون بهذا العنوان الطويل الهادئ "كيف أصبح علم الاستسلام فوق عصا المكنسة علم الثورة علم الدولة؟ والحكاية هنا مبنية على التورية القائمة على هذا الجنس الناقص بين الإفراط والتفريط(9-57).

فالكاتب يحاول، من خلال شخصية (سعيد) أن ينتقل إلى البطل المزروع في كل واحد من أبناء شعبه، أو على الأقل التذكير به، فالنص يعتمد مع سعيد - كما رأينا - في علاقته على أفعال تصف حركته المختلفة وسلوكاته المتناقضة، من خلال رفعه العلم الأبيض رمز الاستسلام، وفي الوقت نفسه رمز احتلال الأرض لكن ذلك يصور حركة انفصالية عن هذه الدولة. فحيفا لا زالت

د. سعيد الفيومي

في نظر سعيد أرض محتلة، إن هذه الصورة التصغيرية لواقع الكاتب تصنع نوعاً من التأين مع حاضره يحاول من خلالها التغلب على اللحظة المعيشة بعيداً عن تجزئة الزمن أو بعثرته. فالكاتب يعمل على إعطاء شخصية سعيد مواصفات صراعية/ملحمية يتميز بها، ترتقي بالشخصية إلى هذا الحشد الكبير من التكتيف الصراعي والاختلافي الذي يعبر بسعيد ليكون رمزاً عاماً لكل فلسطيني يعيش داخل فلسطين، "فكثيراً ما تكون الشخصية هي العنصر الأهم في القصة، لا بد أن يمسه من قريب أو من بعيد ويؤثر في تكوينها بألوان جيدة، ويلقي الأضواء الجديدة على مكامن أسرارها وأعماق أغوارها" (10-20).

إن الموقف السابق بكل ما يحمله من سخرية، فإنه يمثل في مجمله الفضاء الأيديولوجي للنص الذي يريده الكاتب، ويعمل كذلك على تغيير الوعي بالمنطق والبرهان، معتمداً على علامات بسيطة كوسيلة للإقناع المعرفي مع الآخر، بعيداً عن سلطة القوة أو التخويف. الشخصية الثانية في هذه الرواية والتي تطالعنا وتمثل الآخر، شخصية "الرجل الكبير أو ذو القامة القصيرة"، ولعل الكاتب يتعامل مع شخصياته اليهودية (شخصية الآخر)، دون ذكر ملامح الشخصية المادية إلا ما كان منها سطحياً يخدم رؤية الرواية ويركز على مدى غربة هذه الشخصيات عن هذه البلاد، فعندما يتحدث الرجل الكبير، يتحدث بكلام فيه بعض الصفات المادية وعندما يتحدث عن الحاكم، يتحدث بلغة لا يفهم فيها سوى أشياء بسيطة "فما إن قعدت على المقعد راضياً عن أن قامتي أطول من قامة الحاكم العسكري حتى بدون قوائم الدابة، حتى هرع هذا الأخير. أي الحاكم العسكري، إلى التلفون ورطن فيه ببعض الكلام لم أفهم منه سوى اسمين ارتبطا بي فيما بعد زمنا طويلاً: أبي النحس، وسفارشك" (11-67).

فالكاتب يريد أن يقيم تقابلات واضحة بين الأنا والآخر ليس فقط من خلال المرجعيات التاريخية والثقافية، بل من خلال التقابل اللغوي كذلك، فهذا اليهودي عندما يتحدث فإنه (يرطن) بكلمات لا يفهمها (سعيد)، يتحدث هذا اليهودي بلغة أخرى تعبر عن ثقافة أخرى جديدة لم يعهدها من قبل.

ولعل الإبهام في مسميات شخصيات الآخر كان مقصوداً من الكاتب، فهو مقابل تحديد اسم شخصية سعيد ولقب عائلته هذه التسمية الدقيقة والتفاصيل الكاملة عن شخصية (الأنا الفلسطينية) يعطي ألقاباً مبهمه غير واضحة لشخصية الآخر، (الرجل الكبير - ذو القامة القصيرة) مما يعني أن الكاتب أراد من وراء ذلك أن يؤكد على البعد الاجتماعي الذي تتمتع به شخصيته (الأنا) فهي تعيش في بيئة اجتماعية معروفة وغير مبهمه أو مجهولة، فتأكد الذات الاجتماعية (للأنا

جدلية الأنا والآخر (رواية المتشائل أنموذجاً)

الفلسطينية) في مقابل المجهول والإبهام لشخصية الآخر، مما يعمق غربة هذا (الآخر) عن هذه الأرض وينفي عنه البعد الاجتماعي.

د - الزمان والمكان:

إن الإطار الزمني والمكاني في الرواية يرتبط برؤية الكاتب وبالبعد الموقفي للراوي. ومن الملاحظ على هذه الرواية أن الكاتب يهتم اهتماماً كبيراً بالمادة التاريخية، فالأحداث التاريخية بمثابة الشرايين التي تمد الرواية بالحركة والحياة والكاتب يعرض هذه الأحداث ضمن خطوط عريضة، غير مرتبة في إطار الحقيقة التاريخية المطلقة، وهو يستحضر هذا الماضي يقصد إلى صنع نوع من المقابلة بين الماضي والحاضر، فنجدّه يعود إلى كتب الجاحظ وإلى ألف ليلة وليلة ليصف الأمير موسى ساعة دخوله مدينة النحاس، أو إلى كتب ابن جبير حين يصف أسوار عكا ومناخها. والكاتب يختار هذا الإطار التاريخي الممتد، لا ليقول من خلاله ما يقوله التاريخ، لكنه يتخذ من التاريخ إطاراً عاماً، وما يجري داخل هذا الإطار ليجسد من خلاله رؤيته الفنية الجديدة باعتماده على بعض الشخصيات التاريخية المعروفة، "فلا توجد هناك طريقة لبناء حياة إنسان ما سواء أكانت هذه الحياة واقعية أم خيالية، إلا بواسطة إعادة بناء ماضيه وفقاً للترابطات ذات المغزى، الدخيلة على المعطيات التاريخية الموضوعية" (12-33)

فقد بدأ الإنسان الفلسطيني يشعر بضياح ماضيه بسبب النكبة التي أفقدته توازنه وثباته الاجتماعي، ورسوخه واستقراره في الأرض، لذلك تحاول الذاكرة الفلسطينية اقتناص هذا الماضي أو وحدات منه على الرغم من أننا نعيش هذه الأيام حالة تتأين فيها كل الأحداث بسبب حالة القلق المعيشة كنتيجة طبيعية للحالة السياسية التي عاشها الفلسطيني ويعيشها بعد النكبة. لقد أدرك الكاتب منذ اللحظة الأولى أنه أمام حالة جديدة، واقع جديد يريد نزع ماضيه وتراثه منه، فهو يستحضر الزمن الماضي ويؤكد عليه من خلال استحضاره لكم أكبر من وحدات هذا الزمن، وينظر إليها على أنها لحظات تتراكم وتتشكل في هويته التي يركز عليها وتصبح المساءلة عنده أكثر حدة كلما شعر بمحاولة الآخر إذابة هويته. "فكما التي صمدت للصليبيين أطول مما صمد غيرها من الحواضر وردت نابليون ولم يدخلها التتار، حافظت على هيبتها بعد أن هرمت وشاخت وأصبح سورها محششة". (13-70)

أما عن المكان فالكاتب يحاول أن يعطي المكان بعداً وطنياً وآخر إنسانياً، وبإمكان الكاتب التحرك حيثما شاء، وأن يشكل مكانه "إن شاء أن يكون ضخماً ضخامته، وإن شاء أن يكون ضئيلاً ضآلته، وإن شاء أن يكون ممتداً مدده، وإن شاء أن يكون ممرداً مردده، بحيث لا تنشأ في وجهه حدود الجغرافيا ولا ارتفاع الجبال ... إنه يمتد إلى أقصى الأفق الممكنة، (14-15)

د. سعيد الفيومي

فالكاتب في هذه الرواية يحاول أن يعطي المكان بعداً وطنياً وآخر إنسانياً، فمرة يذكر المكان مجملاً من خلال سرد أسماء الأماكن دون التفات إلى التفاصيل "وبقيت عشرين عاماً انتظر عودتها، فقد أخذوها مع غيرها من المتسللين إلى حيفا من الناصرة، ومن المجيدل ومن يافه ومن معلول ومن شفا عمرو ومن عبلين ومن طمرة، وكل عامل تسلل إلى حيفا ليطلع عياله وألقوا بها في سهل جنين بين ألغام الإنجليز والعرب واليهود" (15-109).

ومرة أخرى نراه يدقق في تفاصيل المكان، كما فعل في وصف بيته القديم الذي بات فيه مع يعاد ونهر الزرقاء، فالكاتب أراد من وراء ذلك أن يعطي للمكان ذاكرته الخاصة به حين يحدد الأبعاد الفيزيائية للمكان، ونجد الكاتب في مكان آخر يعمل على بناء وحدة تكوينية يتداخل فيها الزمان والمكان القريب والبعيد "ولا يشترط أن تكون الأماكن التي تدعم إحساس المرء العميق بالهوية هي الأماكن التي يتحرك هذا المرء فيها وينشط الآن بل يمكن أن تكون أماكن تنتمي إلى الماضي أو تنتمي إلى الحاضر وهو بعيد عنها الآن" (16-89) يقول "استقبلنا عكا حين دخلناها وقد التفت بعباءة الليل العباسية ... إن عكا هي مدرستي الثانوية ويعاد هي حبي الأول" (17-70،69).

هنا تتماهى الحدود الفيزيائية والمكونات المادية، والمقياسية والهندسية لمدينة عكا، لانتفاخ لا نهائي للفضاء المكاني على كل مقدرات التخيل الممكنة والمستحيلة، فالنص يعمل على تجاوز ما يعرف بإنسانية المكان أو الأشياء، يتجاوز ذلك كله، ليضع عكا داخل عباءة عباسية، وكأنه يعني لنفسه وحدة سياقية خاصة بتداخل فيها الزمان والمكان حتى التماهي الكامل، وفي الوقت نفسه يؤكد على عروبة هذه المدينة، فالكاتب يعمل على تحريك الخيال خارج المجال الفيزيائي للمكان مما يعطي لهذا المكان كل هذه الأبعاد المختلفة، فعكا في فضاءها المكاني محدود بالمدينة إذا نظرنا إليه ضمن ارتسامه الفيزيائي لكون دخوله حركة الزمن (عباءة عباسية) لينفتح ذلك الفضاء على أبعاد جديدة حين تعلق عكا (حضورها) الخاص في هذا الزمن العباسي، كل ذلك ليرسم وعياً خاصاً للذات الفلسطينية له جذوره وأصوله التي يستند إليها في مقابل الآخر الذي بدأ يتشكل على أرضه (المكان) ويحاول أن يسرق منه زمانه ومكانه.

إن ارتداد النص لهذا الماضي تأكيد على شكل هذه الذات وتجزؤها من ناحية ونفي لصورة الآخر ولصورة الأنا العربية المهزومة والمضطربة والضعيفة من ناحية أخرى، إضافة إلى التأكيد على إمكانية تغيير هذه الصورة، لأنها ليست صورة حقيقية، بل هي صورة وهمية، وما يترتب عليها يصبح وهماً، ويؤكد فيما بعد دعوته للتعايش مع الواقع الجديد، على أنها دعوة تستند إلى الماضي وواقع قوي وليس ضعيفاً.

جدلية الأنا والآخر (رواية المتشائل أنموذجاً)

جدلية الأنا والآخر:

تتشكل (الأنا) الفلسطينية والتي لا زالت تعيش داخل فلسطين من أبعاد أربعة، هي: البعد الاجتماعي، والبعد الديني الطائفي، والبعد السياسي الوطني، والبعد القومي العربي، لكن هذه (الأنا) وبعد إقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين بدأت تتشكل بصورة يبرز فيها تأثير البعد السياسي والبعد القومي. لهذا نسمع (الآخر) اليهودي ينعت المجتمع الفلسطيني (بالوسط العربي) نافياً عنه هويته الخاصة (الفلسطينية).

لا شك في أن الفلسطيني يمثل جزءاً من المجتمع العربي بصورته الواسعة، وغير منفصل عنها، فهذا المجتمع له جذوره القوية والمشاركة في التاريخ والثقافة واللغة والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية مع الوطن العربي. لكن يبقى للفلسطيني داخل وطنه هويته الخاصة به المتمثلة في أمكنة التنشئة التي لا زال يعيش فيها والخبرات التي مر بها والأعراف التي ينتمي إليها، والموروث الاجتماعي والحضاري الذي تواضع القوم على مسابته، والفلسطيني داخل فلسطين بعد عام 1948م هو جزء من الشعب الفلسطيني الذي تم تشريده واقتلعه من أرضه، لذلك فإن تعزيز هذه الذات والمحافظة عليها لم يكن ليخضع لاختيار بين مجموعة من البدائل، وإنما هي امتداد طبيعي لحالة قائمة قبل عام 1948م.

أراد الكاتب من خلال خطابه الروائي أن يؤسس لصورة (ذات) جديدة تستطيع أن تقف في وجه هذا (الآخر) الجديد القادم بحمولته ويريد أن يهيمن على معطيات الحضارة السائدة بكل مكوناتها وعناصرها، ليرسخ مكانها ذاته الحضارية، وفي الوقت نفسه مطلوب من (الأنا) الفلسطينية أن تتعايش مع هذا الواقع المفروض عليها بالقوة ولا تستطيع الفكاه منه.

في رواية المتشائل نحن إزاء وجه واحد لصورة (الأنا)، سواء أكان ذلك على مستوى الأنا الفردية أم الجماعية، فالصورة متداخلة تمثل صورة الذات الفلسطينية، وتبرز هذه الصورة من خلال صورة البطل الروائي (سعيد) وكما مر بنا عند تحليلنا لهذه الشخصية.

فجائبية هذه الشخصية تعكس عجائبية الواقع الفلسطيني الذي بدأ يعيشه الفلسطيني على أرضه بعد عام 1948م، وي طرح الكاتب ذلك على لسان سعيد قائلاً: "أبلغ عني أعجب ما وقع لإنسان منذ عصا موسى وقيامه عيسى، وانتخاب زوج الليدي بيرد رئيساً على الولايات المتحدة الأمريكية (18-149، 150). وتتجسد هذه العجائبية كذلك في أن النسيج الروائي يتشكل من خلال السرد، وتتقاطع فيه الحكاية على لسان الراوي، التداخي أحياناً، والتذكر أحياناً أخرى، والذي يتمحور في مجموعة حول شخصية (سعيد) والتي تعتبر محور الأحداث بأفعالها وردود أفعالها تجاه (الآخر)، إضافة إلى استدعاء مواقف من التاريخ القريب والبعيد، ذلك كله يؤسس إيقاع

د. سعيد الفيومي

الخطاب الروائي ويوجه عناصر أساسية موظفة داخل النص من شأنها الكشف عن علاقة التناقض والجدل بين (الأنا والآخر)، فسعيد حين يصف أحوال أهله السابقين، يتحدث عن وعي سابق، وبداية وعي جديد "وأما أنا فقررت ألا أموت مقوس الظهر كأسلافي، ومنذ نعومة أظفاري أفلعت عن البحث بين قدمي، عن كنز للخلاص، بل رحلت أبحث عنه فيما فوق، في هذا الفضاء الذي لا نهاية له، في هذا البحر بلا ساحل كما وصفه لنا محي الدين بن عربي.

فقد قيض لنا، ونحن في المدرسة الابتدائية أستاذ مغضوب عليه مولع بعلم الفلك، حكى لنا حكايات العباس بن فرناس وجول فيرن، وتعصب للفلكيين العرب القدماء، من ابن رشد، الذي كان أول من درس بقع الشمس، حتى التبانى الحراني، الذي كان أول من استنتج أن معادلة الزمن تتغير بطيئاً مع مر الأجيال، وأول من توصل بكثير من الدقة إلى تصحيح السنة الشمسية" (19-59).

الكاتب في الأسطر السابقة - إضافة إلى أنه يعبر عن حالة جديدة من الوعي - يحاول أن يستحث الذاكرة العربية ليؤكد من خلال هذا الإرث الثقافي على شكل الوعي الموروث لديه، ويرسم وعياً جديداً للأنا بالمنطق والبرهان العلمي، وهو بذلك يعمل على تحريك الخيال الاجتماعي داخل الأنا ليؤكد على قدرته مقابل هذا الآخر الطارئ بحمولته الثقافية. إن مثل هذه الرؤيا تؤكد على امتلاك الكاتب للنص مما يساعده على طرح رؤيته بآليات جديدة نقيضة للآليات السائدة، وهذا بدوره يساعد في تفسير قدرة الكاتب على إعادة الامتلاك لصيغ جديدة تختلف عن الامتلاكات السابقة التي تتميز بدائرية الزمن، والدوران حول الشك في كل شيء، بعدما أضحى الفلسطيني يشك في كل شيء، ورفضاً لهذا الواقع.

وفي حوار مع شخصية الحاكم العسكري، (أبو اسحق) يعمل الكاتب على إبراز جدلية (الأنا والآخر) من خلال صورة هذا الآخر والتي تتجسد في صفات القسوة والعدوان والتسلط الخالي من الرحمة "ولنعد يا محترم إلى مقر الحاكم العسكري الذي ما إن شتم الأدون سفسار شك حتى نزلت عن الحمار فما إن قعدت على المقعد راضياً عن أن قامتي أطول من قامته الحاكم العسكري، حتى بدون قوائم الدابة، حتى هرع هذا الأخير أي الحاكم العسكري إلى التلفون ورطن فيه ببعض كلام لم أفهم منه سوى ارتباطي فيما بعد زمناً طويلاً: أباي النحس وسفسار شك، ثم ألقاه وصاح في وجهي أن قم، فقامت، قال: أنا أبو اسحق فاتبعني قلت إلى أين؟ قال عكا، وانكتم، وانكتمت.... (20-81).

يعمل الكاتب برسمه لصورة الآخر الجديد على أرض فلسطين أن يكشف لنا عن بعد آخر لجدلية (الأنا والآخر) من خلال خطاب لا يندرج ضمن خطاب مرتبط بهذه الأرض حين (يرطن)

جدلية الأنا والآخر (رواية المتشائل أنموذجاً)

هذا الآخر بكلمات لا يفهمها سعيد، ويذكر الكاتب أنه (سعيد) كان يركب حماراً، أما الحاكم فيركب سيارة (جيب)، وأثناء مرورهم ينطلق الحاكم كالسهم بعد أن يوقف سيارة الجيب ويشرع مسدسه يخترق أعواد السمسم، فإذا بامرأة قروية مقرفصة ولديها في حجرها، يسألها من أين أنت؟ فلم تجبه، يصوب مسدسه نحو صدغ الولد، وصاح، أجيبني أو أفرغه فيه، يحاول سعيد عندها أن ينتصر لهذه المرأة، لكنه يقول: "غير أنني أتذكر وصية أبي وبركة والدتي فقلت في نفسي: سأثور عليه إذا ما أطلق الرصاص، ولكنه يهددها فحسب، فبقيت منكشأً" (21-67).

يعمل الكاتب على تصيد سلوكيات (الآخر) لكن ضمن فضاءاته المعهودة، وليس خارجها، أو بعيداً عنها، ويعمل من خلال الخطاب السابق على إقامة علاقة بين (الأنا والآخر)، وإن كانا يسيران في خطين متوازيين، إلا أنه يعمل على أن يلتقيا عنده في نقطة واحدة، وهي محاولة التعايش مع هذا الآخر، ويتجسد ذلك أكثر حين يقول: "سأثور عليه إذا ما أطلق الرصاص، ولكنه يهددها فحسب....." ويؤكد على هذه الحالة في مكان آخر حين يقول على لسان أمه: "حقاً إنهم هدموا القرى التي ذكرها القوم وشردوا أهلها، ولكن يا ولدي إن في قلوبهم لرأفة لم يحظ بها (أجدادنا) من الغزاة الذين سبقوهم، خذلك عكا هذه مثلاً، فحين (فتحها) الصليبيون في سنة 1104 بعد حصار دام ثلاثة أسابيع، ذبحوا أهلها ونهبوا أموالهم" فعلى الرغم من أن الكاتب يصف دخول الصليبيين لعكا بالفتح، إلا أنه يطرح مشكلة العنف التي وسمت تاريخ العلاقات الصليبية مع أهل فلسطين وهو يفعل ذلك بطريقة تاريخية صرفة يسعى ضمن الحدود المباحة إلى قراءة ماضوية للحاضر، ويحرص على أن يقيم نوعاً من العلاقة، وإن كانت علاقة غير متكافئة أو متساوية في تاريخ الممارسة بين آخر وآخر، فالكاتب يستخدم صورة جديدة للآخر (الصليبيين) ليعطي لصورة الآخر (اليهودي) إضاءة أكبر لديه ولحل كثير من الإشكالات التي بدأت تظهر على العلاقة بين (الأنا والآخر)، وتتجسد رؤية الكاتب أكثر في التعايش مع هذا الآخر حين يستدعي الحاكم العسكري الجيش "فاستدعاهم الحاكم العسكري، فلما أنكر أن يكون الجيش قد منع جمال الحارة ودوابها عن ماء الجابية يوم التطويق، حاولوا أن يفهموه أن الأمر تورية، فثارت ثائرتة دفاعاً عن كرامة بني الإنسان الذي لا يصح تشبيههم بالدواب، حتى ولو كانوا أعداءنا العرب، لقد أصبحتم مواطنين، مثلكم مثلنا، وطردهم من حضرته" (22-67، 68).

فالكاتب يعمل على تصوير الآخر مرة بالاندماجي الذي يرى أن الاندماج حلاً للمشكلة ومرة أخرى بضرورة القضاء على العرب، أو حتى طردهم. وسبب ذلك يرجع إلى أن هذا الآخر قدم إلى فلسطين بحمولات ثقافية وحضارية مختلفة داخل مجتمع هذا الآخر تصل أحياناً إلى حد التناقض مع ذاته (الأخرى).

د. سعيد الفيومي

وفي الوقت نفسه تتناقص مع معطيات الأنا داخل الأرض على المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي، لذلك نجد أن خطاب الآخر عند إيميل حبيبي كان غرضه، حل بعض هذه القضايا التي بدأت تظهر على سطح العلاقات السياسية والاجتماعية والثقافية، داخل هذا المجتمع الجديد، كاحتجاج على العنصرية، أو نقد هذا الفكر الجديد، وهذه الثقافة الغربية. إضافة إلى تطوير خطابه السياسي، ليرسي من خلاله بعض المبادئ التي تجسد (الأنا) مما يعطيها موقعها ودورها داخل البنية المجتمعية الجديدة، لذلك نجد في خطابه (لآخر) مكونات اجتماعية وسياسية وثقافية، واقتصادية أحياناً، ليخرج الخطاب من حالة الخيال ويسمه بصفة الواقع ويصبح هذا الخطاب مرجعه الواقع وليس الخيال، فحين يجلس جوار السائق يدور هذا الحديث بينهما: قال: إنه متطوع جاء ليحارب الإقطاع وإنه يحب العرب، وقبل أن يترك المركز وعاد وصافحني بحرارة ووعدي بأنه حين تنتهي الحرب، سيقومون لنا كيبوتسات يعتمدون فيها على أمثالي من الشباب المتحررين، الذين يتقنون لغة إنسانية، وقال (شالوم) فأجيب بـ (بيس) مؤكداً إنسانيته، فضحك وقال: سلام، سلام بالعربية فانفجرت غمتي...." (23-104).

الكاتب يحاول الاقتراب من هذا الآخر لكن هذا السلوك يواجه بسلوك آخر أكثر استفزازية من قبل الآخر يقول له "أهلاً وسهلاً في مدينة إسرائيل: فحسبت أنهم غيروا اسم مدينتي الحبيبة، حيفا فأصبح (مدينة إسرائيل). (24-91).

إن مشكلة (الأنا) هنا مع (الآخر) أن الآخر يمثل (خارج/ داخل) الأرض لذلك تبرز الأنا متموضعة في الحد الفاصل بين الغياب والحضور في حين يحاول الآخر إلغاء الهوية الثقافية للأنا من خلال السلوك المشحون بالاستفزاز والقائم على الإقصاء والاحتواء (أهلاً وسهلاً في مدينة إسرائيل) (25-92).

وينطلق الكاتب في رسم العلاقة الجديدة بين الأنا والآخر من مربعات خصوصية حضارية وثقافية واقتصادية، ويرسم للأنا مدياتها القصوى في احتمال التعايش والتلاقي مع هذا الآخر ضمن نسيج مجتمعي قابل للحياة والاستمرار، مع التأكيد على هوية الأنا والمرتبطة بالمكان، ثم عادت الأصوات تنتسب في (عناد) مع أن قراها، كما فهم، قد درستها العسكر.

نحن من الرويس

نحن من الحدثة

نحن من الدامون

نحن من المزرعة

نحن من شعب

جدلية الأنا والآخر (رواية المتشائل أنموذجاً)

_ _ _ _ _ (26-73،74).

فالكاتب يؤمن أن الفلسطيني في هذا الواقع الجديد - بدأ يعيش حالة من الخوف تجاه الماضي والمستقبل، فكان عليه أن يوجد نوعاً من التوحد بينه وبين الجغرافيا (المكان) فالأنا عنده ليست مجموعة من القناعات أو الانطباعات أو الأفكار أو الإيديولوجيات، بل تحتاج - إضافة إلى ذلك - إلى مرجعية جغرافية وهي ما يفتقر إليه الآخر، ويؤكد على الفراغ المرجعي لهذا الآخر من خلال التأكيد على المرجعية التاريخية له (الأنا)، لذلك نجده يبرز شعور فقدان لدى الآخر، فقدان ألفة الأشياء والأمكنة، وحتى التاريخ الذي يتماهى بالهوية ويعزز ذلك لدى (الأنا) ليصل بنا إلى ما يمكن أن نسميه بمشاعر الاغتراب والغربة والتي تضع المسافات بين هذا الآخر والتكيف ضمن معطيات الحياة الجديدة بالنسبة له وشروطها على أرض الواقع مع (الأنا)، فترى الكاتب في كثير من مواقف النص يعود بنا إلى الوراء ليؤكد على المرجعية التاريخية والعلمية "وكان المغضوب عليه يبقينا في الصف بعد الدوام، ويغلق النوافذ ثم يحكي لنا متباهياً عن أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني، الذي استنبط كروية الأرض وأن جميع الأجسام تتجذب نحوها قبل نيوتن بثمانمائة عام فقد كان العرب حين يفكرون - قال الأستاذ المغضوب عليه - يعملون ثم يحلمون، لا كما يفعلون الآن، يحلمون ثم يظنون يحلمون. (27-82).

فهذا الارتداد للماضي للهدف منه طرح المخزون الثقافي العربي داخل الخيال المعرفي ضمن الإطار التاريخي، لإعادة التوازن المعرفي داخل الوعي الفلسطيني، ويعيد لهذا الوعي حركيته مع هذا الواقع الجديد، إن مثل هذه الفقرة وغيرها كثير داخل النص الروائي، يبتعد فيها الكاتب عن الخطاب الروائي إلى مثل هذه الأساليب والتي تقترب كثيراً من فن السيرة، أو السردية التاريخية، ذلك أن الكاتب لا يبحث في الحقيقة - عن أنا جديدة أو أخرى، لكنه يحاول أن يستخدم ذلك للاقترب من هذا الآخر ومن ثقافته، وقد تحصن بهذه الهوية المعرفية فهذا الآخر أصبح واقعاً لا مفر من التعامل معه، لهذا نجد الكاتب يطرح (الأنا) ضمن دائرة ثقافية واجتماعية وجغرافية خاصة به، ليضمن لهذه (الأنا) الحفاظ على هويتها داخل هذا المجتمع الذي بدأ يتشكل من جديد، لذلك نجده يرفض الدائرة الثقافية الحالية للأنا "فهذه هي شيمة عائلتنا النجبية أن نظل نبحت تحت أقدامنا عن مال سقط سهواً من صرة عابر سبيل لعلنا نهتدي إلى كنز يبذل حالنا الرتيبة تبيداً". (28-74).

ونجد الكاتب يقدم هذه الجدلية بين الأنا والآخر بصورة أعمق من الإقصاء أو الاحتواء حينما لا يدرج هذا الآخر نفسه ضمن الخطاب الإنساني "قلما استخدام هذا الامتياز البشري والحيواني،

د. سعيد الفيومي

بضعة أطفال من قرية الطيبة يتراوحن في العمر بين تسع سنين واثنين عشرة سنة، فمضوا قدماً إلى مدينة نتانيا ليروا البحر بالعيون، بعد أن سمعوا هدير موجة بالأذان، ألقى القبض عليهم فاقْتيدوا إلى محكمة عسكرية، فأوقع حاكم المحكمة العسكرية على هؤلاء عقوبة الغرامة، فمن عجز عنها فيما يملكه حتى الطفل، وهو الحياة، شهراً في السجن، ولما عجز أحد الأولاد عن دفع الغرامة فافتداه والده بحياته في السجن، أبي الحاكم إلا أن يزيد على سنين الطبيعة شهراً واحداً، فأمر أن تقتديه والدته الولد بشهر عاشر من حياتها بعد شهور الحمل التسعة. (29-119).

الخلاصة:

إن ما يميز صورة الآخر عند إيميل حبيبي هي: أن الكاتب يحاول أن يرسم صورة لهذا الآخر من الواقع، ومن خلال تعامله مع هذا الآخر، وليس صورة من خياله أو في خياله، أو بناء على الصورة القائمة على التعصب، وبالمقابل يحاول أن يؤسس لصورة (أنا) جديدة تستطيع أن تقف في وجه هذا الآخر الجديد على هذه الأرض، وفي الوقت نفسه تتعايش مع هذا الواقع المفروض بالقوة عليها. فعمل على بناء هذه (الأنا) من خلال المحتوى للذات - المعرفة والتاريخ والجغرافيا - والذي ركز عليه الكاتب داخل النص الروائي يجد لهذه (الأنا) دعماً على مستوى الواقع الموضوعي محاولاً بذلك أن يجد نوعاً من التوافق بين محتوى (الأنا) وتمثلات الواقع الموضوعي الجديد.

إلا أننا نجد التعارض بين الأنا والآخر يتعمق في وعي الذات، فمعادلة العلاقة مع هذا الآخر تأخذ صيغة التعايش مع هذا الواقع وهي صيغة قد تعكس من داخلها نوعاً من الازدواجية في فهم الآخر، أي التردد بين التعايش مع هذا الآخر أو مناهضته، انعكس هذا التردد داخل النص في مواقف متعددة، فمحاولة الآخر تذويب هوية الأنا إلى محاولة إلغائها أوجدت ردة الفعل تجاه الأنا هذه، يقول (بياربا ولودوناتي): إن صورة الآخر هي دوماً صورة متوسطة اجتماعياً، وضمن العوامل التي تتوسط العلاقة (أنا/ الآخر) هناك الشعور بالاشتراك في مواطنة عامة - كما النموذج الذي حاول أن يعرضه إيميل حبيبي - أو بعدم الاشتراك، فإذا ما تفتن المرء إلى وجود ما يتحدى هويته (دلالتها، معناها، أو عنوانها)، أدى ذلك إلى تغيير رؤيته للآخر، وكان ذلك شرطاً لاهتمامه بصورته (30-129). وعلى الرغم من ذلك كله يمكن أن نلاحظ دعوة صادقة للتعايش مع هذا الآخر الطارئ بالنسبة للأنا، ويؤكد ذلك ندرة الألفاظ داخل النص التي تتحدث عن الحرب والمعارك والموت والهزيمة والنصر أو أي ألفاظ مرتبطة بالحرب أو ما يجاورها في المعنى. فمثل هذه الألفاظ نلحظ اختزالاً واضحاً لها داخل النص، وكان التركيز على سيرة الأنا ومعاناتها وصلها هويتها ومحاولة تجذير هذه الهوية تجذيراً موثقاً وليس مجرداً.

جدلية الأنا والآخر (رواية المتشائل أنموذجاً)

لذلك نجد الكاتب يعمل على تغيير الوعي بالواقع من خلال المنطق والبرهان والحجة، وأساليب الإقناع المعرفي بعيداً عن القوة، فهو حين يستحضر الماضي بكل مكوناته، ليتصدى لفعل موضوعي جديد، يطرح اختلافه وأسئلته.

لقد استطاع الكاتب أن يحافظ على توازنه خلال النص وهذا يبدو واضحاً من خلال تحديده الواضح لمستوى الآخر، ساعده ذلك على اختيار الخطاب المناسب له، ومحاولة التمدد نحو هذا الآخر، وكان هذا التمدد باتجاه الآخر ليس الغرض منه الدفاع عن النفس، أو محاولة منه لصوغ مواقف تجاه هذا الآخر، بل محاولة منه ليتشارك معه، مع الاحتفاظ بهويته وصورته. لذلك نجد أن خطاب (الأنا للآخر) لم يقف عند حدود (انتظار) انتظار الآخر لما سيقول ليرد عليه، على الرغم من شعور الكاتب بالتهديد في بعض المواقف.

لقد صور الكاتب هذا الواقع الجديد بكل أشكاله السياسية وعلاقته الاجتماعية لتصبح فيما بعد نزعة داخل المجتمع الفلسطيني، لذلك كنا نجد الخطاب الروائي يركز على صفات الآخر وسلوكه الاجتماعي والنفسي، إضافة إلى بعض الصفات الإيديولوجية والعقائدية، على الرغم من أن العقيدة أو الدين لم يكن معياراً في خطابه للآخر.

على المستوى الفني استطاع الكاتب أن يطرح أنموذجاً جديداً في الكتابة الروائية قادراً على استيعاب تجاربه وخلق نص متميز وخاص، فهذه الرواية تنتمي إلى إنتاج روائي عربي جديد، يطرح إشكالية (الأنا والآخر) من خلال رؤى جديدة مغايرة، وهذه الرؤى تقدم حلولاً قائمة على محاولة التعايش مع هذا الآخر ولكن على طريقة الأنا، رغم غرائبية الشرط التاريخي الذي يحكم العلاقة بين الأنا والآخر، وتتوسل الرواية لوصف ذلك كله بأساليب فنية أكثر تطوراً.

مصادر البحث ومراجعته:

1. البوجي محمد أبو بكر، إميل حبيبي، 2000م، بين السياسة والإبداع السياسي، غزة، فلسطين، ص: 93.
2. رواية المتشائل، إميل حبيبي، 1984م، دار شهدي للطبع والنشر، ط(6)، القاهرة، ص: 35.
3. الرواية، ص: 69، 70.
4. حمداوي جميل، 1997م، السميوطيقا والعنونة، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ج5، (ع 3 يناير-مارس) ص: 11.
5. Edward.sw.said, Beginning, intention-5 and method, Bahimore, MD: Johns Hopkins, university pa:13.

د. سعيد الفيومي

6. عويس محمد، 1408هـ-1987م، العنوان في الأدب العربي، النشأة والتطور، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، ص:28.
7. البوجي محمد أبو بكر، إميل حبيبي بين السياسة والإبداع، ص:104.
8. الرواية، ص:161-162.
9. عيد عبد الرازق، 1999م، الرمز في الرواية الفلسطينية، مجلة الكرمل، العدد59، ص:57.
10. نجم محمد يوسف، 1965م، القصة في الأدب العربي الحديث، دار الثقافة، بيروت، ص:20.
11. الرواية، ص:67.
12. ميرهوف هانز، 1973م، ترجمة أسعد رزوق، العوضي الوكيل، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ط1، ص:33.
13. الرواية، ص:70.
14. مرتاض عبد الملك، دت، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، ص:155.
15. الرواية، ص:109.
16. نجم محمد يوسف، القصة في الأدب العربي الحديث، ص:89.
17. الرواية، ص:69،70.
18. الرواية، ص:149-150.
19. الرواية، ص:59.
20. الرواية، ص:81.
21. الرواية، ص:67.
22. الرواية، ص:67-68.
23. الرواية، ص:104.
24. الرواية، ص:91.
25. الرواية، ص:92.
26. الرواية، ص:73،74.
27. الرواية، ص:82.
28. الرواية، ص:79.
29. الرواية، ص:119.
30. دوناتي بيار باولو، 1999م، صورة الآخر في العلاقة: مواطن أجنبي، ملاحظات أولية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، أغسطس، ص:129.